كلمة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني

رئيس مجمع اللغة العربية

السيدة نائب رئيس الجمهورية الدكتورة نجاح العطار راعية هذا الحفل

أيها السيدات والسادة

يشرفني أن أفتتح هذا الحفل التأبيني لفقيدنا الكبير الدكتور عبد الكريم الأشتر بتكليف من السيدة النائب، لأنقل إليكم ما تخص به ذلك العالم الفاضل والأستاذ الكبير من التقدير، وهي تشاركنا في إكبارنا لأعماله العلمية وتأكيدنا لمقامه الرفيع في خدمة اللغة العربية ومكانته المتميزة في حقل اختصاصه.

فشكرًا للسيدة النائب على تفضلها بالحضور.

❀ ✿ ❀ ✿ ❀

أيها السيدات والسادة:

إنها المناسبة الثانية التي تملأ فيها أصداءٌ لاسم الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله أرجاءَ مجمع اللغة العربية، اعترافًا بفضله، وتأكيدًا لمكانته العلمية الرفيعة.

فقد كانت الأولى حين أجمع مجلس مجمع اللغة العربية على انتخابه أولَ عضو شرف في هذا المجمع العريق، ليُضمَّ اسمه إلى تلك الأسماء التي تميّز أصحابها بصدق انتمائهم إلى الثقافة العربية، وحرصهم على سلوك طُرُقٍ جديدة تعيدُ اللغة العربية لغةً عالمية، مؤهَّلةً لحمل أعباء العلوم عامةً، والعلوم الحديثة خاصة، بما يقود إلى فتح الأبواب واسعةً أمام أبنائها، للمساهمة في بناء عالم الغد.

وأنتم تشاركون اليوم في المناسبة الثانية، وقوامها حفل تأبيني، يجعل من هذا المنبر منطلقًا لأصداء أخرى، تردّد ما نَودّ أن يعرفه مجتمعنا، عن رجل وَهبَ حياته للعلم، وجعل من خدمة اللغة العربية وآدابها منارةً يهتدي بها، وتتحكّم بكل نشاطاته، وذلك إرضاءً لإيمانه العميق بلغةٍ أتاحت له فهمَ العالمِ من خلال ألفاظها وتراكيبها، واستقرّت في نفسه مرتكزًا لهويته.

إن اللغة العربية ككلّ اللغات ما هي سوى ألفاظٍ وتراكيبَ، تتجلى كلامًا منطوقًا أو نصوصًا مكتوبة. فإذا كان الكلام حُرا كما هو معروف يُستطاع التعبيرُ به عن المقاصدِ بأساليبَ تجمع بين ألفاظٍ مفردةٍ لِتنتظم في مساردَ متكاملة، فإن النصوصَ مُقَيّدة بقواعد وضوابطَ وشروطٍ تختلف بين لغة وأخرى باختلاف تلك النواظم. ولغتنا لغة اشتقاقية تُعدّ من أوسع لغات العالم جذورًا، ومن أدقّها في السبك والتركيب، ملتزمةً قواعدَ توضّح العلاقة بين اللفظ والمعنى، لتوصل القولَ إلى البيان الصريح حتى حين يُحمّلُه الكاتب ثمارَ تخيّلاته وجماليات المجاز.

فإذا أراد باحث في مستوى الدكتور الأشتر النفوذَ إلى قلب اللغة، متوخّيًا التناغم مع روحها، كان لابد له من الانغماس في نصوصها التراثية، إذ إن هذا الانغماسَ هو السبيل لتتكوّن لديه مَلَكَةُ الأسسِ التي يمكن له أن يبنيَ عليها مشروعه.

هو مشروع يستخلص فيه، من ذلك الزَّخْم المعرفي الذي امتّد صُعدًا على أجنحة الفتوحات العربية، عناصرَ تُتيح له فهمَ ما طرأ على اللغة من تطورات، أوصلتها إلى ما هي عليه.

وهذا أمرٌ يَعسُر الوصول إليه بدراسة النصوص الحديثة، بعد أن اعتمدت طابعًا حداثيًا، تسوده نزعةُ التقليدِ الرثِّ للغرب، وتقديسِ الوافد، وازدراءِ الموروث، وكلّها أدوات فعّالة في الاتجاه نحو التغريب، بالإصرار على التحديث القسري.

وحين قام بمراجعة النقد العربي القديم كانت الغاية من تلك المراجعات «أن نُحسن الإفادة من قيَمها وأحكامها في دراساتنا النقدية، لقوة صلتها بحقائق تكويننا، ونظرتنا الخاصة إلى ذواتنا، وإلى الوجود من حولنا، وصِلتنا بمجموع التراث الأدبي العربي».(*) وقد كان اختيارُه هذا للنصوص القديمة تمييزًا لها عما صدر من نصوص في عصور الانحطاط التي تلت ذلك الانفجار المعرفي العظيم، تلك التي اشتُهرت بما سيطر على اللغة من تراجعٍ، أنتجه الانكفاء إلى الداخل، على أفكار السلف في الحواشي والمختصرات. وقد وصف جابر عصفور هذا الانكفاء بالجمود «خصوصًا في اقترانه بأنساقٍ ثبتت فجمُدت، وأعرافٍ استقرّت فتكلّست، وعادات اتُّبعت إلى أن تحجّرت».

ولاشك بأن التعمّق في دراسة التراث لا يحول دون الانفتاح المتوازن على الحداثة، للأخذ منها دونما شعور بالنقص أو الدونية، وهذا ما يعني تأكيدَ الحفاظ على خصوصيتنا الثقافية والقيمية، وهو ما يحول دون تسوّل أجوبةٍ ثقافية غربية عن معضلات مجتمعنا دون وعيٍ الفارق في البنى والتاريخ.

وإن الانفتاح على الحضارات الأخرى، كما نراه في استشهادِ الدكتور الأشتر بأمثال هيبوليت تين H. Taine وسانت بوف Sainte Beuve الفرنسيين من جهة، واعتمادِه ما أضافه التحليل النفسي من أدواتٍ تساعد على كشف خفايا الخطاب من جهة أخرى، يؤكدّ أن هذا الانفتاح لا يعني اعتبارَ تلك الحضارات «مستودعاتٍ للحقائق»، بل هو وسيلة ينأى بها الناقد عن التشرنق على الهوية، مفهومةً بوصفها ماهيةً مطلقةً لا تغتَني ولا تتطور.

لذا كانت دراساته جميعها تهدف إلى استخراج الدروس من تراثنا في مواجهة التنميط الثقافي الغالب، فهو حين يستكشف منطلقات التجديد في دراسته لشعر أبي نواس

(*) مراجعات نقدية / ص٥.

يرى أن التجديد في وسائل التعبير يأتي «دائمًا بعد قيام المفارقات الصارخة بين مضمون العصر الجديد ووسائل تعبيره الشعرية، حتى تقبلَه النفوس وتأتلفَ معه، لإحساسها بالحاجة إليه».[1]

إنّ أعمال الدكتور الأشتر قد شملت ما يسميه «الساحةَ اللغويةَ»، وهو يُعرّفها قائلًا: «هي الساحة التي نبني فيها انتماءنا الصريح، ونحفظ هويتنا الفكرية ومشروعنا الحضاري العام، ونَدخل على المستقبل الذي نريده من أبوابها كلها: السياسية والاقتصادية والثقافية» اهـ[2] وهي أعمال تمثل تحليلًا معمّقًا للغة في صلتها بمستعمليها في مختلف السياقات الاجتماعية، واللغةُ العربية بتراثها الثقافي والعلمي والأدبي والفنّي، تحتاج إلى توثيق نقدي لأصالتها، وتأكيدٍ لاعتمادها الأساسَ الثقافي المتين لكل بناء حضاري مستقبلي، إذ إن المستقبل الثقافي لا يصنعه الحاضرُ ما لم يستند إلى قواعدِه الحيّة، التي يقوم عليها في الماضي.

ويمكننا القول بأن دراساته في الشأن اللغوي لها وجهٌ نضالي، مع أنه نأى بنفسه عن كل موقفٍ انفعالي أو حماسي، واكتفى بإبراز منزلة اللغة العربية تاريخيًا، مع الإصرار على إبداعاتها البلاغية، كما نراه في دراسته للبيان والتبيين، وحتى في دراسته للمواويل الشرقاوية المصرية في كتابه «ألوان».

وهو قد اهتم بتقويم الأثر الذي يخلّفه النص الأدبي في النفس، مستقصيًا حقائقه الفَنيّة، المستخلصة في الزمان والمكان اللذين خضع لأحكامهما، وهو عمل يرتبط باللسانيات الاجتماعية من جهة، واللسانيات التطبيقية من جهة أخرى، وهذا أمر واضح في دراسته لكتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ.

---

(١) مراجعات نقدية / ٢٠٠٩/ ص١٤٥.

(٢) العربية في مواجهة المخاطر / ص١٤.

أيها السيدات والسادة

ما الحياة سوى هنيهاتٍ تنسابُ في مسالٍ زمني لا انقطاع فيه، ولا يبقى منها في الوعي إلا ذكرياتٌ تنتظم في طيّات الوجدان الشخصي أو الجماعي محتفظةً بموقعها فيه. ولقد حاولت في هذه المناسبة، التي جعلناها تثبيتًا لذكرى فقيدنا الكبير، أن أتطرّق في لمحاتٍ قصيرة إلى جُزَيرات فكريَّة في بحر أعماله الأدبية.

إنها دراسات ثقافية أصيلة تدخل في المخططات اللغوية، تصوّرًا وتنفيذًا ومتابعة، وهي تشكّل مستندًا في التصدي لمصادر الضعف والإحباط، في مواجهة الثقافات المتقدمة، كما أنها سياجٌ يحول دون الانجراف وراء ما نراه من زهوٍ طاغٍ بالموروث القديم، يصل إلى حد تقديسه، وحقيقة الأمر أننا حَرِيُّون حريّ بنا أن ندرك أن عصرنا بحاجة إلى قواعدَ يعتمدها لفَهم هذا الموروث، فهمًا يُسوّغ إعجابنا به، بعد أن تتوضّحَ لنا قيمُه الحقيقية.

وإن استذكار أعمالِ أديبنا الكبير في مثل هذه المناسبة يضيف الكثير إلى عراقة هذا المجمع، إذ نضمّها إلى آثارٍ متميزة تركها لنا مؤسسوه. إنّ أعمالَه قد أبرزته باحثًا دقيقًا تناول العديد من الأنواع الأدبية بفطنةٍ ورصانةٍ ودقة، وهي تخدم أغراض مجمعنا، حتى بعد أن سلكنا مسارًا جديدًا أضفناه إلى الدراسات اللغوية الأدبية الصرفة، وهو تسهيلُ نقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية بالإصرار على إيلاء توفيرِ المصطلحات العلمية الأولويّةَ في حركة التعريب. وإنه لمسار شاق في مواجهة ما نراه من تطور متسارع في مختلف العلوم والتقانات، وقد قبلنا التحدي معتمدين خبرات الأجداد في مواجهتهم لحضارات غامرة أغرقت بلاد الشرق، مستلهمين من روح لغتنا طاقاتٍ بقيت تدفعها قرونًا عديدة، مستنكرين ما يُروّجه المستشرقون بأنّ اللغة العربية مصابةٌ بانغلاق صرفي ومحدودية اشتقاقية، كما يقول ويلكوكس (ت ١٩٣٢) أو أن موت الفصحى قد أضحى مُحققًا كما ماتت اللاتينية، حسب قول الآخرين.

بل نقول إن الفصحى ستبقى حية متطورة مادام فيها رجال ونساء يبذلون طاقاتهم لتعود لغةً عالمية تحمل هموم الإنسان، وتشاركُ في ارتقائه الحضاري، وذلك لأنهم يعشقون جمالياتها، ويعبّرون عن ذواتهم بدقيق تعابيرها، ويستظلونها هويةً يفخرون بها.

رحم الله فقيدنا أحد هؤلاء الرجال وأسبغ عليه رضوانه.

والسلام عليكم ورحمة الله.